الآنسة جرترود لثيان بيل

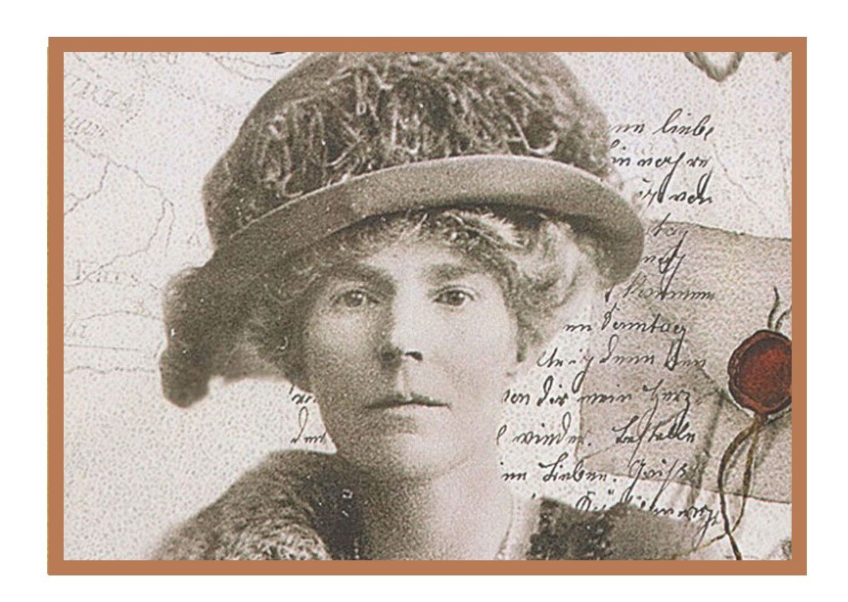
Miss G. L. Bell

تأليف

يوسف غنيمة

جمع وترتيب :

المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي





الجزء ١ من السنة ٤ عن تموز سنة ١٩٢٦

الآنسة جرترود لثيان بل

Miss G. L. Bell.

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
(لبيد بن ربيعة)

يجدر بي ان اصدر ترجمة فقيدة العلم والسياسة بهذا البيت للبيد بن ابي ربيعة لان صديقتنا الراحلة كانت مولعة به وقد حلت به جيد كتابها الانكليزي المعنون «من مراد الى مراد» . اجل لقد ماتت الانسة بل وبليت. ولكن اعمالها نجوم طوالع في سماء

وقال جرير يعير من اخذ الدية فاشترى بها نخلا :

ان ابلغ بني حجر بن وهب   بان التمر حلو في الشتاء

ومثل قول جرير قول الفرزدق :

اكلت دما ان لم ادعك بضرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

يريد بالدم الدية .

وقال آخر :

خليلان مختلف شكلنا   أريد العلاء ويبغي السمن
اريد دماء بني مالك   وراي المعلى بياض اللبن

وهذا وان كانت الشريعة قد ابطلته وجاءت بما هو خير منه واصلح في المعاش والمعاد من تخيير الاولياء بين ادراك الثار ونيل التشفي وبين اخذ الدية فان القصد به ان العرب لم تكن تعير من اخذ بدل ماله ولم تعده ضعفا ولا عجزا البتة بخلاف من اخذ بدل دم وليه فما سوى الله بين الامرين في طبع ولا عقل ولا شرع . اه

العلم وآثار همتها جبال راسية تكافح عوادي الدهر ومصانعها في السياسة تحدث بها الاجيال المقبلة وهذا كله خالد لا يبلى يرويه الخلف عن السلف .

عرفتها عالمة ورحالة وسياسية. عرفت نفسيتها في مظاهر روح الانسان المختلفة. اخذت ترجمتها عنها ونشرتها في مجلة المقتطف (نوفمبر ١٩٢٢) فصداقتنا الوثيقة العرى ووقوفي على ما انطوت عليه تلك النابغة من الهبات ، يؤهلاني لكتابة ترجمتها وتحليل نفسيتها .

ولدت الانسة جرترود لثيان بل في ١٤ تموز سنة ١٨٦٨ من أسرة عريقة في الحسب ، كثيرة النشب ، موطنها شمالي بلاد الانكليز في تخوم اسكتلندة وقد كان جدها الاعلى اول من سعى في تأسيس المعامل الكبرى لتعدين الفحم والحديد . اذ ارتقت الصناعة ارتقاءها العظيم في الثلث الاول من القرن الماضي ، ولا يزال والدها السر هيو بل حيا يرزق، وقد زار العراق سنة ١٩٢٠ وهو شيخ قد اشتعل رأسه شيبا .

ان البيئة التي ولدت فيها جرترود بل بيئة سعادة ورفاهية: بيئة غنى وشرف باذخ . كانت تغنيها عن مكابدة الاتعاب والمشاق ، وتجشم المخاطر والاهوال . ولكن نفسها العظيمة التواقة الى

السمو والمعالي رفعتها عن مواطن الراحة التي تخلد اليهـا الغواني والسيدات الموسرات وانزلتها حلبة الجهاد العلمي والاجتماعي والسياسي ساخرة بالطارف والتليد. مغرمة بالرفعة العقلية . متلذذة بطيب اثمار المساعي الذاتية .

توفرت الاسباب للراحة الكريمة لترفعها الى مصاف العظماء والعظيمات . ولكن قامت بوجهها عراقيل وعقبات كافية لتثبيط همم الرجال فضلا عن همم الانسات : اما هي فقد عرفت كيف تستفيد من الاولى . وكيف تذلل الثانية فخرجت من المعترك حاملة لواء النصر على قمم الدهور وخلدت لهـا اسما عظيما في التاريخ .

جاهدت الجهاد الحسن في كل ادوار حياتها منذ كانت تلميذة في مدرسة « كوينس كوليج » ثم طالبة علم في كلية « ليـدي مرغريت » في اوكسفورد حيث بزت رفقاءها ورفيقاتها ونالت الشهادة العليا وبقيت كذلك حتى دعاها داعي الحمام على ما يأتي .

مدارك سامية . علو همة . ارادة فولاذية . هي اركان ثلاثة قامت عليها شهرتها . نعم ان مداركها لسامية بكل معنى الكلمة : تشهد بذلك مؤلفاتها الكثيرة . وكتاباتها وخطاباتها واحاديثها الطيبة المملوءة حكمة وفائدة: كلها دلائل واضحة على فكرة وقادة

ودماغ جوال، وحافظة حافلة بماحسن وطاب، وذاكرة سريعة؛ ومحاكمة صحيحة. سريعة الكتابة تسير بقلمها سير الفارس بجواده وقلما تعصيها كلمة، او تتمرد عليها عبارة، او تخونها ذاكرتها في ايراد اسم شخص او محل. كأن دماغها ينبوع فياض يتدفق منه الماء عفوا.

ان هذه المزايا والهبات أهلتها لتعلم لغات عديدة وعلوم شتى فانها كانت تعرف ما عدا لغتها الانكليزية، الفرنسية والالمانية والعربية والفارسية. وقد امتازت بالتاريخ، وعلم الآثار، والانساب.

اما همتها: «فحدث عن البحر ولا حرج» بنت دلال وترف. غادة دواوين لندن، خريجة اوكسفورد، نحيفة البنية: تمتطي الاهوال. تقطع الفيافي والبراري مع نفر قليل على ظهور الخيل والابل، تجول البحار، وترتقي الجبال. وتركب متن الهواء غير هيابة ولا وجلة: تخوض غمارات الحرب، وتقطع اشواطا كبيرة في السياسة. اليس هذه الاعمال من مشاهد الهمة البعيدة؟ همة لا تعرف الكلل ولا يعتورها الملل. تصل الليل بالنهار في الكتابة والعمل والمقابلة. وتنتقل من موضوع الى آخر وهي على نشاط من عزمها لا تتبرم، ولا تمل. وهي على كثرة اعمالها كانت

شديدة الشغف بالمحافظة على الوقت، وعلى نظام المواعيد لا تتقدم دقيقة ولا تتأخر .

ارادتها — ما اعظم الارادة التي كانت تتغلغل بين ثنايا ذلك الجسم النحيف والقد الاهيف: ان ارادت امرا اندفعت اليه وان اعتقدت بصلاحه انجزته : فلا تنكل عن خطة ولا تثبطها عقلة . لاقت الامرين من بعض المعارضين لفكرتها من رجالات البريطانيين في السياسة التي وجب على بريطانية العظمى اتباعها في العراق؛ الا انها قاومتهم مقاومة الابطال بمعاونة الرجال الذين كانوا على فكرتها فكان النجاح في جانب حزبها فقام في العراق دولة عربية عزيزة الجانب يرأسها ملك عربي من البيت الهاشمي الرفيع المجد. وقصارى القول ان اعمالها اليومية كانت على هذا الغرار من قوة الارادة ومضاء العزيمة . ولا غرو. ان التي تتخذ رائدها الارادة وشعارها الهمة القعساء . تكون صريحة في اقوالها صراحة يستصعبها بعضهم ويشجبها الاخرون . ولا سيما اولئك الذين لم يتعودوا الجرأة الادبية ولم يأنسوا مظاهر التربية الاستقلالية التي تكاد تكون ميزة ابناء التيمز وبناته .

مع تلك المنزلة العالية ، والارادة الفولاذية ، والصراحة الاستقلالية ؛ لم تكن متصلبة في آرائها مكابرة في انكار هلمقالية

في مناحيها ، بل كانت ترجع عن رأي يفند ببرهان وتعدل عن فكر يظهر لها خطأه وتميل عن مناح تجد اصلح منها. كل هذا مما يشف عن عظمة في نفسها ونبوغ في دماغها .

اما عاطفتها — فقلبها اشبه شيء بالكنارة ذات الاوتار يحفظ نظامها عقلها السليم؛ فتسكت انغام تلك الاوتار ان عالجت صعاب الامور او تعاطت اعمالا مع الساسة واعاظم الرجال ؛ وتسمعك انغاما شجية وايقاعا محزنا ان كان موضوعها مؤاساة البشرية المتألمة ، او الاخذ بساعد بعض البؤساء ومسح دموع المنكوبين والمبتلين . وخلاصة القول تذرعت بارادة الرجال ، ولم تفقد عاطفة الاناث .

الرحالة والمؤلفة

نشأت المس بل شديدة الشغف بالرحلات والتأليف ؛ نضرب هنا صفحا عن اسفارها العديدة في الاقطار الاوربية ونخص بحثنا برحلاتها في الشرق ذلك الشرق الذي احبته حبا جما حتى قضت نحبها فيه وضم جثمانها .

رحلت الى الشرق لاول مرة سنة ١٨٩٩ مع زوج خالها المستر سفرنك لسلس سفير بريطانية العظمى في طهران آنئذ ؛ وولعت هناك بدراسة اللغة الفارسية حتى اقتبست جانبا منها وترجمت قسما

من قصائد حافظ الشاعر الفارسي الشهير الى الانكليزية . وفي السنة التالية ١٩٠٠ زارت سورية وطافت في جبل الدروز واطراف البادية : وكان غرضها من هذا السفر تعلم لغة الضاد فظفرت ببغيتها : الا ان حبها للعرب ولسانهم دفعها مرة ثانية سنة ١٩٠٣ الى زيارة سورية وثابرت هناك على الدرس والمطالعة فاتسع لها المجال للوقوف على اسرار العربية وضبط شواردها : ومنذ ذلك الحين اخذت ترحل كل سنتين رحلة الى بلاد الشرق، وكانت تدوم كل رحلة ستة اشهر . فسافرت سنة ١٩٠٥ الى الاناضول وفي سنة ١٩٠٧ نقبت في اطلال قرب قونية .

واول مرة نزلت العراق كانت سنة ١٩٠٩ . وفي سنة ١٩١١ سافرت مع اخيها الى الهند واليابان ثم جاءت وحدها الى العراق وفي سنة ١٩١٣ سافرت من الشام الى حائل و نزلت ضيفا على ابن الرشيد : وفي ربيع سنة ١٩١٤ اي قبل الحرب العامة جاءت الى بغداد ومنها ذهبت الى الاستانة ، فواجهت فيها غير واحد من وزرآء المملكة العثمانية كجمال باشا وغيره .

ولما نشبت الحرب العامة انتظمت في جمعية الصليب الاحمر وقضت سنة في لندن : ثم سافرت الى فرنسة . وفي شتاء ١٩١٥ هبطت مصر وانضوت الى ادارة السياسة ، وبقيت هناك حتى

اواخر شباط ١٩١٦ فانتقلت الى البصرة؛ وفي سنة ١٩١٧ انتقلت الى بغداد بصحبة السر برسي كوكس .

ان حبها للعلوم ورحلاتها العديدة وتقلبها في المناصب السياسية بعثت فيها رغبة التأليف والكتابة فزاولتهما ونجحت فيها نجاحا اكسبها شهرة بعيدة بين علماء الشرق والغرب : وقد ساعدتها معرفتها اللغات على الاجادة فيما كتبته ؛ وقد خلفت من الكتب ما يأتي : (١) الغامر والعامر Desert and Sworn (٢) من مراد الى مراد Amurath to Amurath وفي هذا الكتاب وصفت رحلتها من حلب الى بغداد الى قونية سنة ١٩٠٩ وصدرتها بمقدمة الى اللورد كرومر : مع مصور للبلدان : فيه خطوط تدل على الطرق التي قطعتها . (٣) الف بيعة وبيعة Thousand and One Churches كتبت هذا الكتاب باشتراك المستر رمزي (٤) الاخيضر وهو بحث مطول عن تاريخ قصر ترى اطلاله في العراق (٥) تركية آسية Asiatic Turkey كتبته في ابان الحرب في البصرة (٦) بيان عن الادارة الملكية في العراق Review of the Civil Administration of Mesopotamia.

ان آثارها المذكورة تظهر نفسية الكاتبة فانها تدقق النظر في رواية الاخبار وتنقلها بامانة واخلاص إلّا اذا التاث عليها الامر

في بعض المواضيع شأن كل الرحالين الافرنج : يصدق هذا الكلام على بعض مرويات في كتابها من «مراد الى مراد» اما من حيث مجموعها فانها آثار خالدة ولاسيما كتابتها عن قصر الاخيضر وعن آثار سامراء واطلالها: وكل ما كتبته بعد الحرب العامة . وتمتاز كتابتها بدقة الوصف فان قلمها هناك بمثابة ريشة المصور اوالنقاش تمثل لك الاشياء والوقائع تمثيلا رائقا كانك امام صورة او امام المشاهد او الحوادث عينها . ولا تتعمد في تأليفاتها الخيال إلّا ما ندر . بل انها تغوص على الحقيقة وبعد ان تظفر بها تخرجها وتعرضها على قرائها كما يعرض الغواص الدرة اليتيمة اذا عثر عليها .

السياسية

مهما بلغت من الشأو البعيد في الرحلات والتأليف فانها لم تنل شهرة طبقت الخافقين عند الخاصة والعامة . إلّا بعد ان انخرطت في سلك السياسة . ولم تكد تأتي مصر سنة ١٩١٥ على ما مر بنا حتى اخذت شهرتها تسبقها الى البلاد الشرقية : ثم زادت شهرة عند نزولها البصرة سنة ١٩١٦ واشتغالها بادارة الحاكم الملكي : وعظمت منزلتها في بغداد بعد ان احتلتها جيوش البريطانيين : وبقيت تلك المنزلة في قمة المجد حتى يوم موتها . وقد كان لها

الكلمة الراجحة والرأي النافذ في جميع تطورات السياسة في العراق وكانت في دار الاعتماد «الكتوم الشرقية» ؛ ثم تولت مديرية المتحفة العراقية فخرا . وتولت ايضا مديرية خزانة السلام ؛ وقامت بتشييد مستشفى للسيدات الموسرات جمعت قسما من نفقاته من العراقيين .

اما الخطة التي انتهجتها في سياستها في العراق فهي انها سعت السعي المتواصل للتوفيق بين السيادة القومية العراقية واستقلال البلاد وبين مصالح بريطانية العظمى في هذا القطر . فهي بريطانية مخلصة لبلادها وصديق حميم للعرب والعراقيين . وكانت عليمة بتطورات القضية العربية منذ يوم نشأتها: اذ كانت تراقب سيرها قبل الحرب عن كثب وتجتمع بزعمائها عند مرورها بسورية وتحادثهم بقضيتهم التي كان يدور محورها يومئذ على الحكومة اللامركزية . وقد قالت لي يوما : « ان لم يدر في خلدها آنئذ ان الاتراك ينكرون على العرب طلبهم حتى يتسع الخرق على الراقع وتخرج البلاد من حكمهم » .

ولقد اعترضتها عراقيل كثيرة في نهجها السياسي من غلاة ساسة البريطانيين الذين اختلفوا في الرأي عنها في اوضاع ادارة العراق وسياسته الا انها انتصرت عليهم . ولما تقرر مصير العراق

بتبوؤ جلالة الملك فيصل الاول عرشه وعقدت المعاهدة العراقية البريطانية في عهد الوزارة النقيبية واصدر جلالة الملك فيصل ذلك البلاغ التاريخي في ١٣ اوكتوبر ١٩٢٢ فاستبشرت به كل الاستبشار واعربت عن سرورها في احدى رسائلها الخالدة؛ فقالت ما تعريبه: « ان هـذا اليوم خير! أليس كذلك؟ فاني اذهب الى ان بلاغ جلالته هو من ابدع ما ينادي به ملك شعبه واعظمه تأثيرا فيهم!»

وكانت شديدة الاعجاب بجلالة الملك فيصل اذ ترى فيه البطل المغوار الذي اعده الدهر وزينه باصالة الرأي ليتولى عرش العراق وكانت ترى في شبان العراقيين عنصرا عليه قوام هـذه المملكة الحديثة وهم رواد مستقبلها الباهر.

ان منزلتها العلمية والسياسية ووظيفتها في ديوان الحاكم الملكي العام: ثم في ديوان المعتمد السامي ونفوذهـا الادبي والسياسي اكسبها شهرة بعيدة واصدقاء كثيرين من جميع الطبقات. ولذا تسمع الاعراب والبدو يدعونها «كوكسة» ظنا منهم ان كوكس اسم وظيفة وكوكسة مؤنثها و«الحاكمة». اما لقب «الخاتون» فكاد يحل محل اسمها: وكان يقصدها العراقيون من كل الطبقات لقضاء حاجات لهم او الاخـذ برأيها في صعاب الامور وحـل المشكلات.

وقد بذلت اقصى الجهد في تأسيس المتحفة العراقية وتنظيمها وكانت حتى آخر يوم من حياتها قد صرفت معظم وقتها في ترتيب العاديات والآثار القديمة في دارها الجديدة.

وفي ابان همتها داهمتها المنية غيلة فاصبحت يوم الاثنين ١٢ تموز ١٩٢٦ جثة هامدة؛ ونعتها مديرية المطبوعات باذاعة رسمية جاء فيها: « ان هذه المديرية تذيع هذا النبأ المحزن بمنتهى الاسف نظرا لما للمس المرحومة من الاعمال الباهرة والمساعدات الثمينة في سبيل خدمة العراق: ولقد فقد هذا القطر بموتها يدا كبيرة عاملة وصديقة له » وبمثل ذلك نعتها كتومية (سكرتيرية) رئاسة الوزرآء

وكان موكب دفنها فخما اشترك فيه ممثلو الملوك والامراء والوزرآء ونواب الامة واعيانها؛ حتى ردد بعضهم بيت المتنبي القائل:

مشى الامرآء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال

ولا عجب ان جاء في كتاب المعتمد السامي الى رئيس وزراء الحكومة العراقية ما يأتي: « اني متأكد ان المس بل لو تمكنت من رؤية ما كان البارحة من مظاهر الحزن والحنو عليها لشعرت بذاتها انها كوفئت مكافأة تامة على ما قامت به طيلة السنوات العشر التي قضتها في العراق في الجهاد والتجرد للعمل ونكران

الذات ... وان نسعى ما امكن الى الغاية التي كانت دائما نصب عينيها الا وهي ايجاد امة قوية منورة مفلحة في العراق . »

وكان جواب رئيس الوزراء على هذا الكتاب اصدق صورة لما يعتقده فيها العراقيون الخلص الذين اطلعوا على سرائر سياستها في العراق وما كانت تبتغيه له من الرقي والنجاح وما بذلته من الجهود لاستتباب وضعه السياسي .

واكبر شاهد على منزلتها ما جاء في كتاب التعزية الذي بعث به جلالة ملك بريطانية وملكتها الى والدة الفقيدة اذ جاء فيه : « ان الامة البريطانية ستلبس الحداد وتحزن على فقدها سيدة قلمت بفضل قواها العقلية ومواهب ادراكها وقوة اخلاقها العالية وشجاعتها الادبية بخدمات مهمة نافعة لبلادها نفعا يأمل ان يبقى اثره خالدا في بلادها والبلاد التي اشتغلت فيها بمنتهى الاخلاص والتضحية » اﻫ

ي . غنيمة